

محاضرة موقف أهل البلاغة من القدماء والمحدثين من الحديث النبوي^(١)

وجدت علوم اللغة العربية - ولا سيما علم البلاغة - لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية، فعكف العلماء منذ القدم على ربط دراساتهم البلاغية بكتاب الله وسنة نبيه، إلا إن دراساتهم للشواهد القرآنية والشعرية تبدو أكثر وضوحًا وتناولًا من الحديث الشريف، فقد كانوا يكتفون بإيراد الشواهد الحديثية دون التعقيب عليها أو الغوص في معانيها، وكانت جهود العلماء في ذلك مبعثرة ضئيلة ضعيفة، خلطوا فيها بين الحديث الصحيح والضعيف والموضوع.

نعرض لبعض جهود القدماء والمحدثين في توظيف النص الحديثي في الاستشهاد البلاغي:

القدماء

- الجاحظ: ذكر في كتاب (البيان والتبيين) من كلام الرسول مما لم يسبقه إليه عربي، ولا شاركه فيه أعجمي، مما صار مستعملاً ومثلاً سائرًا، وأورد عدة منها: "يا خيل الله اركبي" وقوله: "مات حتف أنفه" وقوله: "لا تحتنق فيه عنزان". ووزان بين بعض أقوله عليه السلام وأقوال بعض شعراء العرب.

فقد ذكر الجاحظ طائفة غير قليلة من الأحاديث سردها سرًا دون تعليق، أو تحليل، أو دراسة لدقائقها وأسرارها، وما اشتملت عليه من كنوز بلاغية.

- ابن رشيق القيرواني: في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وأدبه) نوه ببعض الأحاديث للتمثيل على قاعدة يضعها، وقلمًا كان يدرسها أو يحللها، إلا في حديث واحد وهو قوله عليه السلام: "إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة"، واقتصر في ثنايا الكتاب على ذكر الأحاديث دون أن يقف دونها معلّمًا أو شارحًا، واكتفى بالحكم العام والاستحسان المجرد.

- عبدالقاهر الجرجاني: في كتابيه (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) فلم تكن له عناية بالحديث على النحو الذي كان بالنسبة للقرآن، وهذا طبيعي؛ لأن الإعجاز كان همه الأول، إلا بعض النماذج التي تناول فيها الأحاديث من وجهة نظر بيانية. وقد بلغت في كتابه (أسرار البلاغة) ١٢ شاهدًا، تكلم في بعضها من وجهة نظر بيانية فصّل القول في بعضها ولم يفصّل في البقية. أما كتابه (دلائل الإعجاز) فقد لغت الشواهد الحديثية ٦ أحاديث على سبيل الاستشهاد لتأييد رأيه في القاعدة التي يقررها، ولم يقصد دراستها، ولم يتعرض للخصائص الفنية التي تمتاز بها تلك الأحاديث النبوية.

(١) المحاضرة مقتبسة من بحث بعنوان: "الحديث النبوي الأصل الثاني من أصوب الاحتجاج البلاغي"، أ. عبدالسلام الجربي (مجلة الجامعة الأسمرية- العدد ١٧- السنة ٩).

- ابن الأثير: في كتابه (المثل السائر) فقد كان أكثر المتقدمين استشهادًا بالأحاديث النبوية، فبلغت شواهد ١٣٠ شاهدًا، فقد كان ذا عناية جيدة بالسنة.

وقد خصص الفصل الخامس من كتابه لدراسة جوامع كلمه ﷺ، وعلّق على بعضها، وأوردها شواهدًا على بعض الأبواب البلاغية كالتشبيه "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر" والاستعارة "لا تستضيئوا بنار المشركين" فاستعار النار للرأي والمشورة، والكناية "يا أنجشة رويدك سَوِّك بالقوارير".

المحدثون

- مصطفى صادق الرافعي: في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) الذي أشاد بالبلاغة النبوية فقال عنها: "هذه هي البلاغة الإنسانية التي... حسرت العقول دون غايتها، لم تُصنع وهي من الأحكام كأها مصنوعة، ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة".

وفي (وحي القلم) كتب صفحات حول البلاغة النبوية ودقتها، واستشهد بنماذج من هديه مشيدًا بروعة أسلوبه ﷺ ودقة فصاحته وعمق ألفاظه.

كلام الرافعي بعامة في البلاغة النبوية أقرب للمديح النبوي في كثير من جوانبها منها إلى الدراسة التحليلية، وإن حلل فإنه يحلل ويعبر عن إعجابه بأسلوب أدبي، يبين فيه جمال وروعة البلاغة النبوية.

- وقد قامت دراسات أخرى، ولكن كانت تأتي في أثناء الكتب التي كتبها بعضه الكتاب الذين اهتموا بالبلاغة النبوية، ومن أشهرهم: أحمد حسن الزيات، فقد كتب عددًا من المقالات ضمّها في كتاب واحد أسماه (وحي الرسالة)، وأيضًا عباس محمود العقاد، فقد خصص فصلًا بعنوان (البليغ) في كتابه (عبقريّة محمد) وغيرهم.